ان يكون الاعلام الحكومي قد ضرب على هذا اللحن نفسه بشكل دؤوب ومستمر ومتصاعد، فأتى بتأثير في النهاية، فهو أمر أكيد. غير أن ثمة احوالاً كثيرة، سابقة ولاحقة، كان الاعلام الرسمي يقول فيها شيئاً والرأي العام في وادٍ آخر. وأقصد أنه كان لا بد من وجود جانب خصب في المنطق الشعبي للدعاية الاعلامية ما دام قد استجاب لها.

والحق أن الطبقات الشعبية المصرية لم تر الشعوب العربية إلا قليلاً، أما الذين يترددون على مصر، فهم الاغنياء والحكام ومن إليهم، الذين يركبون السيارات الفاخرة ويسكنون الشقق المفروشة الغالية، ويقضون وقتهم في نوادي الليل ويفسدون العائلات المستورة. وقد زاد الوضع سوءاً بعد ١٩٧٣ لأن ثروة النفطيين صارت عنيفة تستفز المشاعر وارتفعت لهجتهم وبدت ارادتهم أكثر من ذي قبل أن يُملوا على مصر شروطهم في الاحسان عليها بما يعتبره المصريون العديدون حقاً لهم.

وعلاوة على ذلك، جاءت الهجرة الكتلية إلى البلاد العربية لتؤكد تلك الانطباعات العامة تأكيداً ملموساً. نعم، يتلقى المصريون هناك أضعاف أضعاف مرتباتهم في بلادهم؛ ولكنهم يغتربون في هذا السبيل وينتجون في مناخ صعب. وأصحاب الاعمال الذين يستغلونهم، هم الأثرياء النفطيون مرة اخرى، وهم على الأغلب أشد ضغطاً وأشرس اعتصاراً من الطبقة المستغلة (بالكسر) المصرية التي يعرف كادحونا بعض سبل الانفلات من قبضتها ولو قليلاً. ومنذ اواخر عام ١٩٧٧ انعكست المقاطعة العربية على معاملة المصريين في أغلب البلدان العربية فأضفت عليها خشونة منفردة آتية من الجمهور العادي فضلاً عن الدوائر الحكومية وأوساط العمل. ولا نتحدث عن الضغوط ذات الأهداف السياسية والتعبئة شبه الاجبارية في الحملة ضد النظام المصري. وصرنا نسمع من الذين يعودون: «نذهب إلى هناك فنبني في الصحراء، ونعطيهم حقهم مقابل ما يدفعون. فما لنا والسياسة؟ السياسة والخلاف بين الحكومات». أو: «العمل شيء والسياسة شيء آخر. لماذا يسبوننا إذا كنا نؤيد السادات ما دمنا نشتغل لهم كما يطلبون وزيادة؟».

وأخيراً، ففي تقديري أن موجة الدعاية الدينية التي بدأت ترتفع بصورة خاصة مرة اخرى منذ تولي «الرئيس المؤمن» كانت لها أيضاً آثار هامة على الرأي العام، في الوقت نفسه الذي كانت تهيجه تهييجاً: ان الفقهاء والمتفقهين الذين ظلوا يملأون الصفحات والبرامج الدينية بالانشاد عن شرور اليهود منذ بدء الخليقة هم هم الذين اخذوا يفتون بعد ذلك بـ «إن جنحوا للسّلم...» فضعفت مصداقيتهم. وقد لاحظ الدكتور حسن حنفي عن حق في كتاباته ان نظام السادات في دعايته الدينية انما كان يستخدم بالذات الجوانب والاوجه الدافعة إلى الاستكانة والاستسلام. وبين الحين والحين كان لدعاية الاخوان المسلمين أيضاً هذا اللون، وخاصة عندما كانت قيادتهم تهادن السلطة لاسباب عدة.

وبطبيعة الحال، ضغطت جماعات إسلامية ــ العديد منها ــ على الوجه الآخر، وجه